الخطاب التربوي والجنوسة في كتب التربية الوطنية والتنشئة المدنية

الحلقة الأولى الأساسية من التعليم العام في لبنان

فوزي أيوب

مقدمة:

هل المرأة «مظلومة» في كتب التربية الوطنية والتنشئة المدنية في لبنان، وكيف نصنّف هذه الكتب من زاوية «جندرية»[1]؟ إن من طبيعة الأشياء أن تدفع المدرسة تلاميذها، من خلال المناهج والكتب المدرسية وغيرها، نحو قيم معينة، دون غيرها، بواسطة عملية التشريب الإيديولوجي (Inculquation idéologique) الموجّه إلى عقل التلميذ ووجدانه بحيث تنمي لديه مواقف واتجاهات محددة ومنها الموقف من المرأة. من هنا تأتي أهمية تضمين الكتب المدرسية صوراً ومفاهيم تؤدي إلى تكوين اتجاهات إيجابية نحو المرأة وعلاقتها بالرجل.

أولاً: إشكالية البحث وأهدافه

تم تسليط أضواء كثيرة في السنوات القليلة الماضية على مسألة التحيّز الجنسي في المدرسة عموماً، وفي الكتب المدرسية بوجه خاص، وأصبح لدى النخبة المتعلمة، على الأقل، إجماع على نبذ أي شكل من أشكال التمييز ضد المرأة

(١) بانتظار الترجمة الدقيقة لمصطلح الجندر (Gender) نقدم المحاولة التعريفية التالية لهذا المصطلح: «الجندر هو مجموعة الخصائص والصفات النفسية والفكرية والاجتماعية التي تنسبها الإيديولوجيا السائدة، عند جماعة أو فرد معين، إلى جنس النساء أو جنس الرجال. ونستطيع اختصار مفهوم الجندر بالتمييز الجنسي الإيديولوجي الذي يمكن أن يتخذ شكل تحيّز جنسي (Sexisme) صريح ضد المرأة أو الرجل، ويمكن أن يكون التمييز موضوعياً إلى هذا القدر أو ذاك. وحسب إيديولوجية الفرد فإنه يمكن أن يحمل نظرة جندرية إيجابية أو سلبية أو محايدة تجاه المرأة أو الرجل.»

أو تبخيس دورها. وانسحبت هذه المواقف على طريقة تقديم المرأة في الكتب المدرسية حتى أن مؤسسة كالمركز التربوي للبحوث والإنماء بادرت، عشية الشروع بتأليف الكتب المدرسية الجديدة، إلى تزويد المؤلفين بقائمة توجيهات تهدف إلى استبعاد كل ما يتناقض مع مبدأ المساواة بين الجنسين في الكتب. لذلك نقول إن فكرة مناهضة التمييز ضد النساء مختمرة في أذهان المسؤولين والاختصاصيين التربويين في لبنان، قبل الدخول في ورشة التطوير الشامل الذي طال مجمل أركان الشأن التربوي والتعليمي من المنهج إلى الكتاب المدرسي إلى طرائق التعليم وأساليب التقييم.

انطلاقاً من هذه الاعتبارات ومن عوامل أخرى كثيرة، يفترض الباحث أن الكتاب المدرسي اللبناني الجديد لا بد أن يكون كتاباً متقدماً يخلو من أي نزعة سلبية معادية للمرأة. فهل التزم المؤلفون اللبنانيون بالتوجيهات الرسمية عند قيامهم بتأليف كتب التربية الوطنية والتنشئة المدنية في الحلقة الأولى من التعليم الأساسي؟ إلى أي مدى يتحقق هذا الالتزام، وإلى أي حد تظهر في هذه الكتب صورة المرأة المساوية للرجل؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة هي الهدف الأساسي لهذا البحث الذي يستهدف أيضاً الخروج بمجموعة من المقترحات التي يمكن أن تساعد مؤلفي الكتب التعليمية للوصول إلى كتاب مدرسي ناجح ومتطور من شأنه أن يفيد في تصويب نظرة المتعلم والمعلم معاً إلى المرأة وفي تفادي الوقوع في فخ المقولبات (stéréotypes) الذكورية المتخلفة التي تعاني منها أغلب المجتمعات الشرقية والعربية.

ثانياً: طريقة البحث

نظراً لطبيعة البحث الذي نسعى من خلاله لاستخراج صورة المرأة (والرجل) في كتب التربية الوطنية والتنشئة المدنية، فإن المنهج الوصفي التحليلي هو الأكثر ملاءمة للوصول إلى الهدف المطلوب وذلك عبر طريقة تحليل المحتوى (analyse de contenu) بوجه عام وتقنية تحليل الموضوعات (analyse thèmatique) بوجه خاص، والموضوعة (thème) هي كل دلالة أو معنى يظهر في نص كتابي أو جزء من النص (فقرة – جملة – عنوان...). وما يهمنا من الموضوعات، وهي كثيرة، هو ما يتصل بموضوع المساواة بين الجنسين في الكتب من أفكار ومفاهيم لتحديد ما إذا كان يوجد تحيّز للرجال على حساب النساء أو العكس.

عملياً قمنا بقراءة الكتب مادة البحث مرات عديدة فحددنا كافة العناصر ذات الصلة بقضية المساواة بين الجنسين، ثم قمنا بتنسيقها وتقريب بعضها إلى البعض الآخر، على ضوء هدف البحث، حتى توصلنا إلى تصنيفها في عدد من الفئات (catégories)

تشكل في مجموعها، شبكة للتحليل (grille d'analyse) خاصة يتم من خلالها تحليل أو «تفريغ» مضامين النصوص والكتب بصورة موضوعية تسمح بالكشف عن طبيعة الحضور الخاص بالمرأة والرجل كمّاً ونوعاً وذلك عبر المستويات التالية:

١- الحضور المادي للجنسين في النصوص والصور

٢- علاقات الجنسين

٣- مهام المرأة والرجل

٤- العمل والوظيفة

٥- النشاطات

٦- المبادرة والقرار

٧- المظهر الخارجي للمرأة والرجل

وبالنسبة لوحدة القياس (unité de mesure) التي اعتمدناها في معالجة النصوص وتحليلها فقد تراوحت بين العنوان والسطر والفقرة والجملة والدرس والصورة.

ومن خلال هذه الوحدات نستطيع تحديد هوية بطل النص، أو الشخصيات الفاعلة فيه، وتحديد مستوى أو حجم البطولة الخاصة بشخصية معينة أو بمفهوم أو بفكرة معينة. وتندرج حالات أو مستويات البطولة في النص (أو الصورة) من حالة البطل الوحيد المهيمن على الدرس مع تثقيل (pondération) حددناه بست درجات، إلى حالة البطل الرئيسي المتوسط الأهمية مع تثقيل درجتين لأنه يحتل حيّزاً هو بحدود ربع الدرس عادة، إلى حالة البطل الثانوي الذي يحظى بتثقيل يبلغ درجة واحدة لأن فكرة البطل الثانوي تظهر في فقرة أو فقرتين في العادة.

وفي ما يخص مادة البحث فقد تكونت من كتب التربية الوطنية والتنشئة المدنية الصادرة مؤخراً عن المركز التربوي للبحوث والإنماء في صفوف الحلقة الأولى من التعليم الأساسي في لبنان. وقد جاء اختيارنا لمادة التربية والتنشئة لأنها مشبعة بالقيم والمواقف الإيديولوجية المختلفة ومنها الموقف من المرأة والمساواة بين الجنسين.

ثالثاً: الصورة العامة للخطاب التربوي عن المرأة

ما هو موقع المرأة بين مؤلفي كتب التربية والتنشئة؟ وما هي حصتها من عناوين الدروس وفي النصوص كما في الصور واللوحات والرسوم التي تتضمنها الكتب؟

أ – المرأة والمؤلفون:

يمكن استخلاص حجم الحضور النسائي بين مؤلفي كتب التربية والتنشئة، ونوعية هذا الحضور، من خلال الجدول التالي:

جدول رقم ١: توزيع المؤلفين حسب الجنس

هيئة التأليف	رجل		امرأة		المجموع	
	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪
مستشار عام	١٨		–		١٨	
مستشار خاص	١		٢		٣	
منسق عام	٣		–		٣	
منسق خاص	٤		–		٤	
مشرف عام	٢		–		٢	
مقرر عام	٣		–		٣	
محرر	١٠		٩		١٩	
قارئ	١		٣		٤	
المجموع	٤٢	٪٧٥	١٤	٪٢٥	٥٦	٪١٠٠

تشير معطيات الجدول الأول إلى أن حصة الرجل أكبر ثلاث مرات من حصة المرأة وسط مجموعة المؤلفين بمستوياتها المختلفة، وتظهر النزعة الذكورية أو التحيز الجنسي ضد المرأة في تفريعات هيئة المؤلفين حيث تقتصر وظيفة الاستشارية العامة للتأليف على الرجال وحدهم دون النساء ولا توجد امرأة واحدة بين ١٨ مستشاراً عاماً لتأليف الكتب. ويتكرر استبعاد المرأة في مستوى المنسق العام للكتب والمنسق الخاص والمشرف العام والمقرر العام ولا تظهر المرأة بين هيئة المؤلفين إلا في مستوى المستشار الخاص والمحرر والقارئ أو المراجع. فلماذا هذا الحضور الضعيف جداً للمرأة بين مجموعة مؤلفي كتب التربية؟ ولماذا استبعاد المرأة تقريباً عن المشاركة في التخطيط لإنتاج الكتب والإشراف عليها؟

إن حضور البنات في المدارس اللبنانية مساوٍ تقريباً لحضور الصبيان، وحضور

النساء المعلمات أكبر من حضور المعلمين الذكور في التعليم الابتدائي على الأقل. فلماذا لا يكون للمرأة حضور مميز بين مؤلفي كتب التربية؟ ربما يرجع السبب الرئيسي إلى اعتبار المرأة عنصراً تنفيذياً في التعليم لما يخططه الرجال ويرسمونه للناشئة. فوظيفة الاستشاري والمنسق والمشرف تحمل في طياتها معاني السلطة والقرار والتخطيط والإدارة والتوجيه، ومن هذه المواقع بالذات جاء الأشخاص الذين أنيطت بهم الأدوار التي نتحدث عنها داخل هيئة التأليف.

ب – المرأة في العناوين

لا شك في أن للعنوان وقعاً خاصاً في نفس التلميذ والقارئ عموماً لما في العنوان من تكثيف وتركيز ولأنه يكون بخط أكبر وفي مكان بارز وبلون مميز أحياناً كثيرة. فما هي حصة المرأة، سواء كانت بنتاً أو فتاة أو امرأة راشدة، من العناوين الرئيسية والعناوين الفرعية في كتب التربية للحلقة الأولى من التعليم؟ بعد دراسة المعنى المتضمن في كل عنوان استخلصنا هوية الشخص أو «البطل» الذي يتمحور العنوان حوله فجاءت المعطيات الإحصائية للعناوين من زاوية جندرية كما يلي:

جدول رقم ٢: توزيع العناوين في الكتب حسب جنس الأشخاص(٢)

الجنس / العنوان	ذكر		أنثى		مختلط		محايد		المجموع	
	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪
رئيسي	٦	٦	–	–	١٠	٩	٩٢	٨٥	١٠٨	١٠٠
فرعي	–	–	–	–	–	–	٦٣٠	١٠٠	٦٣٠	١٠٠
المجموع	٦	١	–	–	١٠	١	٧٢٢	٩٨	٧٣٨	١٠٠

يشير الجدول الثاني إلى أن الغالبية العظمى من العناوين في كتب التربية والتنشئة ذات طابع محايد جنسياً، مع الإشارة إلى فروقات ولو محدودة على صعيد العناوين الرئيسية. فبينما يحظى الذكور، صغاراً وكباراً، بستة عناوين رئيسية خاصة بهم، نجد أن الإناث، صغيرات وكبيرات، لا يحصلن على أي عنوان رئيسي مقابل عشرة عناوين مختلطة بين الجنسين من أصل ١٠٨ عناوين رئيسية في الكتب الثلاثة. ولا

(٢) قد ترجع «ذكورة» العنوان إلى ذكورة اللغة نفسها وليس إلى موقف جندري ذكوري، والشيء نفسه يقال عن الأنوثة.

تظهر مشكلة تحيز جنسي في مستوى العناوين الفرعية لأن الكتب تتبع نظاماً نمطياً محايداً ومتكرراً بالطريقة نفسها من درس إلى آخر. وهكذا نجد أن هنالك غبناً جزئياً يلحق بالمرأة وحصتها من عناوين الدروس.

ج – المرأة في النصوص

إلى أي حد تتمحور نصوص كتب التربية حول شخصيات مذكرة أو مؤنثة أو مختلطة، ومن هم أبطال النصوص؟ عندما يكون شخص ما هو البطل الوحيد في النص نجد أن هنالك تركيزاً كاملاً عليه وعلى دوره(٣). وعندما يتركز الدرس بدرجة ملحوظة أو لا بأس بها، على شخص ما معين فإننا نعتبر أن هذا الشخص «بطل رئيسي» في النص(٤). أما عندما يتركز النص بصورة جزئية أو محدودة على شخص فإننا نصنفه في خانة «البطل الثانوي» للنص(٥). وقد تكون بطولة النص مشتركة بين الجنسين أو قد يكون النص محايداً من الناحية الجندرية، أي لا صلة له بالذكورة والأنوثة(٦).

وانطلاقاً من هذه القواعد التي نعتمدها في تحليل نصوص الكتب نحاول استخراج هوية الأشخاص الذين يظهرون على مسرح الدروس وجنسهم ودرجة تركيز الدروس عليهم خلال الجدول التالي:

جدول رقم ٣: توزيع نصوص الكتب حسب جنس أبطالها
(وحدة القياس: الشخص ومستوى حضوره في النص)

الجنس / بطولة النصوص	ذكر		أنثى		مختلط أو محايد		المجموع	
	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪
٥٦٤٨	٥٢٤	٤	٥٢	–	٥٦٢٢	٩٦	٥٦٤٨	١٠٠

يتبين من الجدول الثالث أن معظم دروس كتب التربية والتنشئة هي إما مختلطة أو محايدة جندرياً مع وجود ميزة محدودة لجنس الذكور (بحدود ٤٪) على جنس

(٣) نعطي هذا التركيز تثقيلاً (Prondération) بمقدار ٦ درجات هي كل الدرجات التي يمكن أن نحسبها لدرس واحد.

(٤) نعطي البطل الرئيسي تثقيلاً بمقدار درجتين لأنه يحتل حيزاً هو بحدود ربع الدرس.

(٥) نعطي البطل الثانوي تثقيلاً بمقدار درجة واحدة لأن فكرة البطل الثانوي تظهر على مستوى فقرة أو فقرتين عادة.

(٦) في كلا الحالتين نحسب للبطولة المشتركة أو للحيادية الكاملة للنص تثقيلاً ٦ درجات أيضاً.

الإناث. فالنصوص التي قمنا بتحليلها تتوجه غالباً إلى الإنسان الفرد أو المواطن دون تحديد هويته الجنسية (Discours asexué) بحيث تجد المرأة حيّزاً لها إلى جانب الحيّز الخاص بالرجل مع مسحة ذكورية في الكتب لا يمكن تجنبها، لغوياً على الأقل[٧]، لأن كلمات الفرد والإنسان والمواطن والتلميذ وغيرها، هي مفردات مذكرة بطبيعتها. ويمكن التغلب على ذكورة اللغة في النص من خلال اعتماد صيغة المتكلم الفرد «أنا» وصيغة المتكلم الجمع «نحن». أما التمارين والأسئلة فيمكن فيها طرح السؤال بصيغة مزدوجة كأن نقول: أجب (أجيبي) أو اذكر (اذكري)... فإذا اكتفيت بكلمة «اذكر» تصبح الفتاة التلميذة غير معنية لغوياً بالأمر، وإذا اكتفيت بالقول «اذكري»، يصبح الفتى التلميذ غير معني بالأمر من جانبه[٨]!

وإذا وضعنا هذه الإشكالية اللغوية جانباً ودخلنا في تفاصيل النصوص وهوية أبطالها وجنسهم فإننا نجد أن الغلبة الجزئية للرجال على النساء في بطولة الدروس تتم وفق «الخريطة» التالية: تحظى البنت والمرأة بتركيز محدود أو جزئي على الصبي في تسعة نصوص، وتركيز ملحوظ عليه في درسين آخرين: «سأل سليم أباه عن الدولة اللبنانية، فقال الأب إنها تتألف من اللبنانيين الذين يقيمون على أرض وطننا لبنان وتنظم حياتهم حكومة...»[٩].

وبالإضافة إلى الصبي نجد أنه يوجد تركيز محدود (أو ثانوي) في الدروس على دور الرجل الراشد في تسعة نصوص مع نص واحد ينطوي على دور ملحوظ للرجل: «يضبط قائد الشرطة مع فريقه الأمن ولا يستطيع أي شرطي التصرف دون أمر من قائده...»[١٠].

د- المرأة في الصور واللوحات والرسوم

تتزين كتب التربية والتنشئة بما مجموعه ٧٨٠ صورة أو رسم أو لوحة ملونة، جيدة الإخراج، مع شروحات خاصة بكل صورة، مما يزيد من القابلية الإيحائية

(٧) كما لا يمكن تجنبها لأسباب أيديولوجية واجتماعية ودينية وسياسية أيضاً. فلكل نظام تربوي أيديولوجيا خاصة به، سواء كانت معلنة أم مستترة، يراعيها مؤلفو الكتب، تلقائياً أو بعد تدخل من فوق، عند قيامهم بمهمة التأليف.

(٨) من أمثلة ذكورية اللغة في الكتب ما يلي: «هل في صفنا تلميذ جديد؟»، أو «أنا لبناني...»، حتى أنه يكاد لا يخلو درس واحد من ذكورية الكلام. وعلى هذا الصعيد نشير إلى أننا نعتبر حديث النصوص عن «التلاميذ» موجهاً إلى الجنسين معاً وليس إلى الصبيان وحدهم. ولكن الأمر مختلف عندما يدور الحديث عن تلميذ أو رفيقه ورفاقه.

(٩) ك٣-ص٦٩ (أي كتاب الصف الثالث).

(١٠) ك٣-ص٣٢.

لمضمون الصورة. فكم مرة تظهر المرأة في هذا المشهد البصري قياساً على ظهور الرجل فيه؟

جدول رقم ٤: توزيع الصور واللوحات حسب جنس أشخاصها (وحدة القياس: الصورة)

الجنس / الصورة	ذكور		إناث		مختلط		محايد		غير محدود		المجموع	
	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪
٧٨٠	١٦١	١٢	٦٥	٨	٢٠٠	٢٦	٣٤٣	٤٤	١١	١	٧٨٠	١٠٠

يستفاد من الجدول الرابع في بحثنا أن أكثر الصور واللوحات ذات مضامين محايدة جندرياً تليها حجماً الصور المختلطة التي يظهر فيها الجنسان معاً صغاراً وكباراً. أما الصور واللوحات التي تخص جنس النساء في الكتب فهي أقل من نصف حصة جنس الرجال من الصور، كما هو واضح في الجدول الرابع. ومع أن المرأة تحتل في الصور والرسوم التوضيحية موقعاً لا بأس به، فإن الملاحظة التي يمكن تسجيلها هنا هي امتداد لما سبق أن لاحظناه في العناوين والنصوص، حيث يحظى الذكور بموقع أفضل من الإناث ولكن بنسبة محدودة لأن حضور المرأة كبير في المواضع الثلاثة دون أن يصل مع ذلك إلى المستويات التي بلغها الرجل. وعلى صعيد مؤلفي الكتب كان الفارق بين الجنسين أكبر لصالح الرجل كما لاحظنا. إذن نحن أمام ظاهرة ممتدة من موضع إلى آخر ولو بنسب مختلفة.

فما هي خلفية هذه الظاهرة وما الذي يرجح كفة الميزان دائماً لصالح الجنس الذكر؟ هل هي ذكورية اللغة؟ ولكن في هذه الحالة لماذا تبرز ظاهرة تبخيس موقع المرأة في الصور واللوحات وفي هيئة مؤلفي الكتب؟ هل هو الواقع المجتمعي للمرأة اللبنانية؟ هل هي التصورات اللاواعية الموجودة في أذهان المؤلفين عن المرأة ودورها في المجتمع والحياة عموماً؟ لا نملك إجابة دقيقة عن هذه التساؤلات لأن الأمر يحتاج إلى دراسة خاصة.

رابعاً: صورة البنت والفتاة

كيف تبدو صورة البنت والفتاة في كتب التربية قياساً على الصبي والشاب؟ وهل يوجد تحيّز لواحد من الجنسين في عالم الطفولة والمراهقة بوجه خاص؟ للإجابة عن تساؤلات كهذه تندرج ضمن سعينا للكشف عن مظاهر التحيّز الجنسي ضد المرأة في

كتب التربية سوف نركز على نقطتين أساسيتين في هذا السياق وهما: الإطار العلائقي للبنات والصبيان، وطبيعة المهام والأعمال المناطة بكل جنس.

أ – الإطار العلائقي

مع من تظهر البنت وأين يحصل ذلك وفي أية وضعية؟ وقبل هذا وذاك، ما هو حجم شبكة العلاقات التي تنسجها البنات والصبيان كما يتحركون في ثنايا نصوص التربية؟

نستطيع الرد على هذه الأسئلة من خلال المعطيات التفصيلية الواردة في الجدول التالي:

جدول رقم ٥: شبكة علاقات البنات والصبيان
(وحدة القياس: السطر)[١١]

العلاقة	الجنس	
	الصبي	البنت
مع تلميذ	٩٤	١
مع تلميذة	–	١
أخ	٥	–
أخت	٢	–
صديق	٣	–
صديقة	–	٢
أم	٥	–
أب	١٢	–
الأهل معاً	٢١	–
الجد	١	–
الجدة	٣	٢

(١١) في حسابنا لحجم ونوعية العلاقات التي يسجلها الذكور والإناث في الكتب، أسقطنا من الحساب العلاقات المختلطة أو تلك التي لا تنتمي بوضوح إلى هذا الجنس أو ذاك ويمكن أن ننسبها للصبي أو البنت كما في المثال التالي: «في المدرسة أتعرف إلى الكثير من الرفاق» (ك٢ ص٢٣).

معلم	٢٥	–
معلمة	٢	–
إدارة مدرسة	٢	–
رجل أمن	٤	–
مختلف	٤	–
المجموع	١٨٣	٦
النسبة	٪٩٧	٪٣

تدفع بنا المعطيات المستخلصة من الجدول الخامس إلى الشعور بالصدمة لضيق المدى العلائقي عند البنات مقابل اتساع المدى العلائقي للصبيان الذين يستأثرون بحوالي ٩٧٪ من المساحة[١٢] التي يدور فيها حديث عن علاقات الصغار من الجنسين مقابل ٣٪ فقط تخص البنات من تلك المساحة.

هذا الخلل الكبير في التوازن بين دائرة علاقات الصبي ودائرة علاقات البنت يشكل مفارقة تتعلق بالتوجه العام لكتب التربية وتحتاج إلى تفسير. من جهة ثانية تشير هوية الأطراف الذين يدخل معهم البنات والصبيان في علاقات معينة إلى أن التواصل العلائقي بين الجنسين محدود جداً حتى بالنسبة للصبي. فإذا استثنينا علاقات الصبي بالأم والجدة سنجد أن علاقاته تكاد تنحصر بالرجال تقريباً. فليست لديه أية علاقة مع تلميذة أو صديقة مقابل ٩٧ من السطور التي تشير إلى علاقاته مع تلميذ أو مع صديق. ومقابل حوالي عشرين علاقة مع المعلم، يقيم الصبي صلة بالمعلمة مرتين فقط. من جهتها تقيم البنت علاقة واحدة مع كل من الجدة والصديقة وإحدى التلميذات دون أن تكون لها مع الجنس الآخر سوى علاقة وحيدة مع تلميذ في صفها[١٣].

ومن حيث مضمون العلاقات تقتصر علاقات البنت على التنشئة الخلقية والرعاية العامة بينما تتسع مضامين علاقات الصبي لتشتمل على التنشئة الخلقية أولاً (في ٢٧ حالة) ثم الرعاية العامة (١٠ حالات) فالتعليم (٨ حالات)، تليها حالات التعاون والمساعدة (٦ مرات) وحالات اللعب والتسلية (٦ مرات) وصولاً إلى النشاط البيئي والتدريب على العمل (مرة في كل حالة).

(١٢) هذه المساحة مقدّرة بالأسطر.

(١٣) قد تكون محدودية علاقات الصبيان والبنات واحداً من الأسباب التي تجعل كثيراً من نصوص الكتب قليلة الحيوية وتتّسم بالجمود وبتقطيع الأوصال بين أجزاء الدرس الواحد.

وبالنسبة للمكان الذي تنعقد فيه علاقات البنت والصبي مع الآخرين فإننا نجد أن الحيّز المكاني لعلاقات الصبي يتسع ليشمل المدرسة أولاً (في ٢٧ علاقة) ثم البيت (٢٠ علاقة) فالطبيعة في (٤ علاقات) وصولاً إلى السيارة والشارع. أما علاقات البنت فتحصل إما في المدرسة أو في البيت (في علاقتين لكل منهما).

ب – المهام والأعمال:

ما هي المهام والأعمال التي يقوم بها الصغار من الجنسين، وما هو مدى التكافؤ بينهما في هذا المجال؟[١٤] هل تعكس الكتب صورة نمطية للبنات والصبيان بحيث تقوم البنات بمهام مصنّفة تقليدياً على أنها مهام أنثوية، بينما توكل إلى الصبيان مهام مختلفة، مصنّفة على أنها مهام ذكورية؟

في بحثنا عن أجوبة لهذه الأسئلة قمنا بتسليط الأضواء على المهام أو الأعمال الخاصة بكل جنس على حدة[١٥] كما يظهر في الجدول التالي:

جدول رقم ٦: مهام الصبيان والبنات
(وحدة القياس: الفقرة + الصورة)

الجنس / المهام	صبي		بنت		المجموع	
	فقرة	صورة	فقرة	صورة	الفقرات	الصور
تغذية	١	٣	–	–	١	٣
ترتيب وتنظيف	٩	١٣	١	١٨	١٦	٢٥
دراسة	١	١٦	–	١٥	١	٣١
رعاية عامة	٢	–	–	–	٢	–
زراعة وبيئة	–	٨	–	٢	–	١٠
صناعة وحرف	٢	١	–	–	٢	١
هندسة وبناء	–	٢	–	١	–	٣
مختلف	–	١	–	–	–	١
المجموع	١٥	٤٤	١	٣٦	٢٢	٧٤

(١٤) المهام هي أعمال غير مدفوعة الأجر تتم داخل البيت أو خارجه بصورة منتظمة. إنها ليست ممارسة لوظيفة أو لعمل مأجور أو لمهنة محددة.

(١٥) لم نحسب المهام المشتركة بين الجنسين.

يكشف الجدول السادس عن أن نصوص كتب التربية والتنشئة تعطي مهمة وحيدة للبنت هي الترتيب والتنظيف: «أرتب ثيابي وكتبي ومكان نومي لكي لا أُتعب إخوتي ووالدي بأعمالي الخاصة»(١٦). أما مهام الصبي فتصل إلى ١٥ مهمة موزعة على الترتيب والتنظيف والصناعة والحرف، والرعاية، والدراسة، وإطعام الآخرين. جاء في كتاب التربية للسنة الأولى الأساسية: «كلفتك أمك الاهتمام بأخيك الصغير أثناء غيابها. عمّ تبعده للحفاظ على سلامته؟»(١٧). أما مشاهد الترتيب والتنظيف فتتكرر عند الصبي مرات كثيرة كما في المثال التالي: «خلع زياد ثوب المدرسة ورماه على الكرسي. في اليوم التالي وجده غير مرتب، لبسه وهو يشعر بالخجل وقرر أن لا يهمل ترتيبه بعد ذلك»(١٨).

وإذا كانت دائرة مهام البنت ضيقة وتكاد لا تُرى في نصوص الكتب، فإن هذه الدائرة تستعيد الوضع الطبيعي على صعيد الصور (٣٦صورة) وتتسع إلى درجة تقترب كثيراً من دائرة الصبي (٤٤ صورة)(١٩).

بل إن مهام البنت تعود إلى حالتها التقليدية المعروفة في عالم التنظيف والترتيب (١٨ مرة) فتزيد عن مهام الصبي بصورة جلية.

هذا الاختلاف بين وضع البنت في النصوص ووضعها في الصور يجعلنا نرجح أن تغييب البنت عن القيام بمهام معينة في النصوص يرجع إلى مفارقة معينة أكثر مما يرجع إلى موقف للمؤلفين من المرأة ودورها لأن هؤلاء يقدمون للمتعلم صورة صبي عصري جداً في مهامه وكثيراً ما يقوم بدور مخصص للبنات في العادة، خارجين بذلك عن نطاق النظرة التقليدية لتقسيم العمل والمهام والأدوار بين الجنسين.

خامساً: المرأة العاملة

ما هو موقف كتب التربية من عمل المرأة ودورها الإنتاجي، وما هي الأعمال والمهن التي تقوم بها المرأة عبر النصوص والصور؟ نشير بداية إلى أن المساحة المتروكة للعمل ضعيفة أصلاً سواء كانت تخص المرأة أو الرجل. وأكثر ما يبرز في الكتب هو اسم مهنة ما تخص هذا الجنس أو ذاك في سياق ليس العمل والإنتاج محوره الأساسي. والجدول التالي يبيّن لنا حجم الحيّز الخاص بالعمل في الكتب ونوعية

(١٦) ك١ – ص.١٣.
(١٧) ك١ – ص.١٩.
(١٨) ك٣ – ص .١٩.
(١٩) نعرف طبيعة المهام في الصور واللوحات من خلال التعليق الخاص بكل صورة ومن خلال تفاصيل الصورة نفسها أيضاً.

الأعمال المناطة بكل جنس:

جدول رقم ٧: عمل المرأة والرجل
(وحدة القياس: الفقرة + الصورة)

الجنس / المهام	صبي		بنت		المجموع	
	فقرة	صورة	فقرة	صورة	الفقرات	الصور
تدريس	٢٣	٨	٣	٩	٢٦	١٧
تجميل	–	١	–	–	–	١
تمريض	–	–	١	١	١	١
طب	٢	٤	–	–	٢	٤
هندسة وبناء	–	٤	–	٢	–	٦
تجارة وبيع	١	٣	–	–	١	٣
صناعة وحرف	٥	١٠	–	٢	٥	١٢
زراعة	١	١١	–	–	١	١١
أمن	٥	١٣	–	–	٥	١٣
إدارة وسكرتارية	٢	–	–	١	٢	١
فن وأدب	٢	٥	–	٤	٢	٩
تغذية وطبخ	–	٥٣	–	–	–	٣
المجموع	٤١	٦٢	٤	١٩	٤٥	٨١

يثير الجدول السابع تساؤلات كبيرة. فحصة الرجل من العمل أكبر ١٠ مرات من حصة المرأة في النصوص وأكبر ٣ مرات من حصة المرأة في الصور واللوحات. ونتساءل مجدداً عن سر هذا التفاوت الملحوظ بين حضور المرأة العاملة في النصوص وحضورها في الصور، وهي ظاهرة سبق أن برزت أيضاً على صعيد المهام الخاصة بالصبيان والبنات في الكتب نفسها. هل يرجع السبب إلى أن موقف منتجي الكتب، المسؤولين عن الصور، أكثر تقدماً وإنصافاً حيال المرأة من موقف المؤلفين؟ أم أن ذكورية اللغة تلعب دورها من جديد وفي غير صالح النساء؟

هذا من ناحية حجم الأعمال والمهن النسائية. أما من حيث نوعيتها فإنها تكاد تنحصر في التدريس بينما الأعمال والمهن عند الرجل متنوعة. فهو مدرّس قبل كل شيء ورجل أمن بعد ذلك، ثم هو حرفي أو عامل في الصناعة والزراعة والطب والتغذية وغيرها من جوانب العمل في الحياة والمجتمع.

إن الغبن واضح في تقييم العمل بين الجنسين في كتب التربية وهو تقسيم جندري بالمعنى السلبي للمرأة اللبنانية وموقعها. وقد كان حرياً بالمؤلفين أن يزيدوا من حجم ونوع الأعمال والمهن المنوطة بالنساء اللواتي يعملن كطبيبات وصيدلانيات وممرضات ومحاميات فضلاً عن المجال الإعلامي الذي يكاد يغص بالنساء اللواتي يعملن فيه وبنجاح ظاهر للعيان.

سادساً: النشاطات

لا تتم النشاطات أثناء قيام الفرد بعمله، ومن شروطها أيضاً أن تتم خارج البيت وبمشاركة أكثر من شخص واحد[٢٠]. وأهمية النشاطات تكمن في أنها تدلنا على الحدود التي ترسمها كتب التربية للحياة الاجتماعية للنساء والرجال والبنات والصبيان. وعموماً فإن النشاطات الواردة في الكتب تظهر من خلال الجدول الإحصائي التالي:

جدول رقم ٨: نشاطات الصغار والكبار من الجنسين
(وحدة القياس: الفقرة + الصورة)

الجنس / النشاط	ذكور		إناث		مختلط		المجموع	
	فقرة	صورة	فقرة	صورة	فقرة	صورة	فقرة	صورة
ثقافي علمي	–	٣	–	–	٢	٤	٢	٧
اجتماعي	–	١	–	–	٨	٤	٨	٥
ترتيب وتنظيف	–	–	–	–	٥	٢	٥	٢
رياضي	–	٢	–	–	–	١	–	٣
مدرسي عام	–	١	–	–	٢	٣	٢	٤
بيئي زراعي	١	١	–	–	٩	٣	١٠	٤

(٢٠) هنا يكمن الفارق بين النشاطات والمهام إذ إن الأخيرة فردية الطابع.

ترويح وتسلية	٢	٤	–	٣	١	٦	٣	١٣
وطني	–	١	–	–	٤	٣	٤	٤
كشفي ندوي	–	–	–	–	٥	٣	٥	٣
مختلف أو غير محدد	٤	١	–	–	–	٤	٤	٥
المجموع	٧	١٤	–	٣	٣٦	٣٣	٤٣	٥٠

يشير الجدول الثامن إلى أن معظم النشاطات في كتب التربية ذات طابع مختلط سواء في النصوص أم في الصور واللوحات. فإلى جانب مجموعة صور يبرز فيها العلم اللبناني، نقرأ في كتاب السنة الأولى ما يلي: «نصنع العلم اللبناني بواسطة أجزاء ورقية محضّرة لهذه الغاية» (ص ٦٥). كما نقرأ أيضاً: «نقوم مع معلمنا بجولة يشرح لنا فيها قواعد نظام الأماكن العامة» (ص٥١).

وبينما لا نجد نصاً واحداً يتضمن نشاطات تقوم بها البنات أو النساء عموماً، تتحدث سبعة نصوص عن نشاطات الذكور: «في يوم العطلة، ماذا تفضل: البقاء في المنزل قرب التلفزيون، أم الخروج في رحلة مع الرفاق؟» (ك ٢ – ص ٧٣). وفي كتاب السنة الثالثة الأساسية نقرأ: «اجتمع فريق لتزيين الصف، فقال نبيل: هذا الأسبوع أحتفل بعيد ميلادي...» (ك ٣– ص٢٧). وفي مكان آخر يبرز النشاط البحثي للصبيان: «كلف المربي هؤلاء المتعلمين الثلاثة للقيام ببحث حول الزراعة في لبنان» (ص ٢٩). هذا في نصوص الكتب، أما في الصور واللوحات فإن الوضعية الجندرية تتعدل كالعادة بحيث تشكل نشاطات المرأة ثلث النشاطات الخاصة بالرجل وهذا أفضل بكثير من غياب أي نشاط للمرأة في النصوص.

سابعاً: المبادرات والقرارات[٢١]

إذا كان موقع النساء في كتب التربية أقل شأناً من موقع الرجال في معظم المستويات التي تحدثنا عنها، فمن المنتظر أن تكون حصتهن من المبادرات أو القرارات أقل من حصة الرجل أيضاً. ويظهر من تحليل محتوى الكتب أن الرجال يقومون بخمس مبادرات أو يتخذون خمسة قرارات تقريباً مقابل كل مبادرة أو قرار من جانب النساء.

(٢١) المبادرة هي رد عملي فردي على وضعية مستجدة، أما القرار فهو فردي أيضاً يمكن أن يكون نظرياً أو عملياً ويمكن اتخاذه في أي وقت.

ومن أمثلة المبادرات النسائية: «شاهدت منى إحدى رفيقاتها ترسم على جدار الصف بقلم الرصاص. أقنعت منى رفيقتها بمحو ما رسمت» (ك ٣ – ص ٤٩)، وبالمقابل تكثر الأمثلة على مبادرات الرجال وقراراتهم: «طلب إليك أنت ورفاقك تنظيم رحلة إلى الحرج المجاور للمدرسة سيراً على الأقدام. ماذا حضرتم لهذه الرحلة؟» (ك١ – ص٤٦). وأمام لوحة تصور المشهد نقرأ التعليق التالي على لسان صبي يوبخ صبياً آخر: «امنع الغير من الإساءة إلى بلادي» (ك١ – ص٦٢). ونقرأ أيضاً: «يدعو معلم الصف موظف التنظيفات في المدرسة، ليشرح للتلاميذ كيف يمكنهم أن يساعدوه...» (ك٣ – ص٤٩).

هذه الأمثلة وكثير غيرها تشير إلى حال الغلبة الذكورية الصريحة في مجال المبادرة والقرار في كتب التربية. وقد تزداد هذه الغلبة عندما نصنف المبادرات والقرارات إلى ما هو أساسي أو هام أو ثانوي لنجد، على الأرجح، أن القرارات الأساسية أو الهامة هي من حصة الرجال والباقي، أي المبادرات والقرارات الثانوية، هي حصة المرأة.

ثامناً: المظهر الخارجي

يشتمل المظهر الخارجي على الثياب والملابس والزينة الظاهرة للمرأة (والرجل) ويرتبط هذا المظهر عند المرأة والرجل بالصور والرسوم الواردة في الكتب. ومع أن الرجل يظهر مرتين وأكثر في الصور، كلما ظهرت المرأة فيها لمرة واحدة، فإن حضور البنات والنساء لا بأس به في كتب التربية اللبنانية.

وعند النظر في كيفية ظهور المرأة نجد أنها ترتدي ثياباً عصرية[٢٢] في ٩٤٪ من الحالات التي تكون فيها شخصية وحيدة في الصور. والحال نفسه يتطابق مع كيفية ظهور الرجل في الصور وما يرتديه من ثياب كما يبدو في الجدول التالي:

جدول رقم ٩: المظهر الخارجي للجنسين في الصور والرسوم

المظهر / الجنس	محافظ تقليدي		مزيج وسط		عصري غربي		المجموع	
	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪
ذكور	٧	٥	٢	١	١٥٢	٩٤	١٦١	١٠٠
إناث	٣	٥	١	٢	٦١	٩٤	٦٥	١٠٠
مختلط	٣	٢	٧	٤	١٩٠	٩٥	٢٠٠	١٠٠

(٢٢) الثياب العصرية هي تلك الشائعة في أوروبا والعالم الغربي عند الرجال والنساء.

يبين هذا الجدول أن الزي العصري هو السائد في الصور والرسوم ويرتفع درجة في خانة الصور المختلطة بين الجنسين ليصل إلى ٩٥٪ من هذه الصور. وتكشف هذه المعطيات عن وجود صورة عالمية عصرية عن المرأة والرجل من حيث الشكل الخارجي، في أذهان المسؤولين عن إعداد كتب التربية والتنشئة في لبنان. ويعبر هذا الموقف عن عقلية تحديثية علمانية صريحة لدى واضعي الكتب التي نحن بصددها، أو لدى مخرجي هذه الكتب على الأقل. فلأول مرة من بداية البحث، نقع على جانب تتساوى فيه المرأة مع الرجل من حيث نوعية المظهر الخارجي الذي تطغى عليه النزعة العصرية في الحالتين. فمن أصل ٦٥ صورة للمرأة لا نجد زياً تقليدياً محافظاً للمرأة إلا في ٣ حالات تخص المرأة التراثية اللبنانية، أي لا تعني المرأة اللبنانية المعاصرة. إن عدم وجود ولو حالة واحدة لامرأة محجبة مثلاً يكشف عن أن مفهوم القيم والأخلاق عموماً في الكتب له طابع ليبرالي سافر. وهكذا تشيع في الكتب صورة الفتاة التي ترتدي التنورة القصيرة أو التي تسبح بالمايوه مثلاً. ثمة مساواة إذاً بين الجنسين في نوعية ظهورهما في الصور والرسوم تتحقق من خلال الزي العصري الغربي السائد في الكتب وهو ما قد نفتقده في الكتب المدرسية لمعظم الدول العربية.

تاسعاً: استنتاج

ما هي خلاصة الموقف الجندري للخطاب التربوي لكتب التربية الوطنية والتنشئة المدنية في لبنان، وما هي الآفاق المفتوحة أمام المرأة في هذا المجال؟

إن موقع المرأة في الكتب محدود بالمعنى الكمي للكلمة وخاصة في النصوص التي تبدو مجافية للنساء بينما الصور والرسوم تنصف المرأة وتبدو صديقة لها. وقد يكون هنا مكمن التحيز الأبرز للرجل على حساب المرأة، إذ إنه عندما تظهر الإناث في الكتب تستقيم الأمور نسبياً، من زاوية جندرية، وتتحرك المرأة بطريقة مساوية للرجل أحياناً كثيرة. فقد وجدنا أن للنساء ربع حصة الرجال بين صفوف من تولوا مهمة تأليف الكتب وأن حصة النساء تتركز في المستويات التنفيذية من هذه المهمة. وفي مستوى العناوين يحظى الرجل بعناوين خاصة به دون أن تنال المرأة أي عنوان خاص بها. أما في نصوص الكتب فإن الذكور يحظون بنصيب يفوق ١٢ مرة نصيب الإناث، بينما يتقلص الفارق في الصور والرسوم إلى صورتين للذكر مقابل صورة للأنثى تقريباً.

وعلى المستوى العلائقي تتفوق علاقات الصبيان بصورة كاسحة في الكتب على العلاقات التي تنسجها البنات ويتسع إطارهم العلائقي إلى كافة الأشخاص في البيت والمدرسة والمجتمع.

وعلى صعيد المهام تغيب البنات عن الساحة بصورة شبه تامة في النصوص مقابل مهام شتى وكثيرة يقوم بها الصبيان، إلا أن الأمر يعود فيستقيم إلى حد كبير في الصور والرسوم.

وبالنسبة للعمل والمهن والوظائف تكاد المرأة لا تظهر في النصوص بينما يسبح الرجل في فضاء واسع من الأعمال والأشغال. أما في الصورة فإن وضع النساء، يصبح مقبولاً إلى حد ما.

من جهة أخرى تغيب نشاطات المرأة تماماً عن النصوص وتصل إلى ثلث نشاطات الرجل في الصور. وتفوق حصة الرجل من المبادرات والقرارات حصة المرأة بصورة جلية. ولا يستوي وضع المرأة والرجل في كتب التربية والتنشئة إلا من حيث سيطرة المظهر الخارجي العصري والبعد عن الزي المحافظ أو التقليدي في هذا المجال.

نستنتج من هذه الخلاصات التفصيلية أن كتب التربية تنصف المرأة تماماً في نقاط معينة، وتنصفها جزئياً في نقاط كثيرة أخرى، ولا تنصفها في بعض المواقع. وبين مستوى الحد الأدنى المتمثل في عدم تقديم صورة متخلفة للمرأة، ومستوى الحد المتقدم المتمثل في تبني قضية المرأة وحمل راية الدعوة إلى المساواة بين الجنسين، يمكن وصف الكتب بأنها تقف في نقطة وسط بين هذا وذاك ويصح فيها ما قيل في المناهج الجديدة من أنها «منفتحة على موضوع المساواة» لا أكثر. فرغم أن صورة المرأة في كتب التربية لا تزال تقليدية بوجه عام إلا أنها تعكس، إجمالاً، تطوراً إيجابياً في النظرة إلى المرأة، وتظل أكثر انفتاحاً من مثيلاتها في الكتب المدرسية العربية حسب ما نعتقد. فالمسار الطبيعي للكتب المدرسية في بلد يحكمه توجه ليبرالي مثل لبنان هو أن تعكس في مضامينها واقع المجتمع والنماذج النسائية والرجالية الفاعلة فيه وأن تتضمن دعوة، مباشرة أو غير مباشرة، للتلميذ لكي يسير ولو قليلاً على طريق المساواة بين الجنسين[٢٣]. إن المدرسة لا تعبر فقط عن الصورة الراهنة للمجتمع اللبناني بل تعبّر أيضاً عن الصورة المستقبلية المتوخاة لهذا المجتمع كما ترسمها الإيديولوجيا المسيطرة فيه.

من هذه الزاوية يعكس الخطاب التربوي في لبنان واقع المرأة اللبنانية في مواضع

(٢٣) يظهر هذا النمط من الدعوة عندما تتجه حركة المجتمع نحو الانفتاح والتقدم الاجتماعي. أما عندما يتجه المجتمع إلى الوراء فإن الدعوة تتجه نحو الحد من مظاهر المساواة بين الجنسين، بل ونحو إلغائها تماماً في حالات التطرف الرجعي، كما هي الحال اليوم في النموذج الأفغاني مثلاً. أما في الحالة الأولى أو التقدمية فإن الكتب تصور المرأة في مواقف إيجابية بحيث تتحمل المسؤولية وتتخذ القرارات وتعمل وتبادر وتشارك في النشاطات العامة.

كثيرة، ويتجاهله في بعض المواضع كما هي الحال مثلاً بالنسبة للمرأة المحجّبة التي لا تظهر في الكتب، مع أنها تمثل نسبة لا بأس بها من نساء البلد حالياً. وممّا له أهميته في هذا السياق أن تكون لدى مؤلفي الكتب فكرة دقيقة عن واقع المجتمع بحيث لا يخترعون صورة مثالية عصرية عن المرأة في الكتب الدراسية مثلاً عندما تبيّن الدراسات الاجتماعية عكس ذلك.